المقتطف

الجزء السابع من السنة الحادية عشرة

١ نيسان (ابريل) ١٨٨٧ = الموافق ٨ رجب سنة ١٣٠٤

الذكاء والجنون

ضمّنا ووزيرًا من كبار الوزراء مجلس انس فرائد الافكار خمورهُ ودرر الاقوال كؤوسهُ. ودارت حميّا الحديث على الذين تفرّدوا بالذكاء الفائق. او بالقرائح الخوارق. وما يعتري بعضهم من الآفات والعاهات. او ما يطوحون اليهِ نفوسهم من الموبقات. فحدّثتنا النفس ان نجمع شيئًا ما علّقهُ العلماء الاعلام على هذا الموضوع. لانهُ من المسائل الفلسفية الطلّية التي شدّت اليها رحال الافكار من قديم الزمان. وحاول العلماء والحكماء كشف قناعها بالحدس او بالامتحان. فجمعنا ما يلي وسنزيدهُ بيانًا عند سنوح الفُرَص

كان قدماء اليونان يجعلون الاذكياء من قومهم محلاً رفيعًا ويعدونهم من اهل الكرامات المكاشفين او المفطورين على الانيان بالخوارق. ويعتقدون ان ذكاءهم الهامٌ الهيٌّ خصّهم الآلهة بهِ. ثم خامرهم ظنٌّ ان الجوهر الالهي الفيّاض اذا حلّ في مجاري العقول البشرية طغى عليها لغزارتهِ فضاقت بهِ ذرعًا واعتراها الاضطراب والخلل ولذلك لا يتّقدُ ذكاء الانسان الاّ ويعتريهِ طرفٌ من الجنون. تجد هذا الحكم واردًا في اقوال افلاطون وارسطو وشيشرون وهوراشيو وغيرهم من حكماء اليونان والرومان

ولكنّ القدماء لم يكونوا يحتقرون الجنون بل كانوا يعدّونهُ ضربًا من الكشف الالهي ولذلك لم يصعب عليهم ان يلحنوهُ بالذكاء ويجدوا بينهما رابطًا متينًا. ثم شاع الاعتقاد بوجود

الهين اله الخير واله الشر فاعتقد الجمهور ان الجنون مَن يستولي عليهِ اله الشر او جنودهُ . وكثُرت الاوهام بَعْدَ ذلك وارخى ليل الجهل سدوله فخاف الناس من اذكياء العقول كما يخافون من المجانين والشياطين لما رسخ في عقولهم من وجود علاقة بين الجنون والذكاء فلم يعسر عليهم ان يلحقوا الاذكياء بالمجانين ويحكموا على الطائفتين حكمًا واحدًا

ثم تغيّر رأيهم في الاذكياء مع تمادي الزمان ودقّة البحث فلم يعودوا ينسبون الذكاء الى الالهام والكشف بل الى ارتقاء قوى العقل الى اسمى مراتبها . فعلا عندهم شأن ذوي العقول الذكيّة فعظموهم وأجلّوا قدرهم ونظروا الى الجنون بعين بشريّة فحكموا انهُ فساد في العقل او خَلَلٌ في آلاتهِ . وهذا يقضي بفصل الاذكياء عن المجانين فصلاً تامًّا ووضع الاذكياء في اوج سلسلة البشر والمجانين في حضيضها وعامّة الناس بين هذَين الطرَفين

وقد ذهب فريقٌ من العلماء الى ان الذكاء المفرط مَرَض في الدماغ كالجنون . وعلى ذلك اقوال كثيرة لمشاهير الكتّاب . قال بسكال الفيلسوف الفرنسوي "ان الذكاء المفرط جارٌّ للجهل المفرط" . وقال ديدرو وهو من الفلاسفة الفرنسويين ايضًا "انهُ كثيرًا ما يتصل الذكاء بالجنون ويلتحمان" . وقال لامرتين الشاعر الفرنسوي "الذكاء يجرُّ الخراب والموت والجنون كما تجرُّ الثمرةُ الدودةَ" . وقال في مكان آخر "ان الذكاء مرض عقلي" . وهذا مذهب غيتي الشاعر الجرماني وطاسو الشاعر الايطالي وغيرهما من مشاهير اذكياء العقول

ولكنّ هذه الاقوال لا قيمة لها ولا اعتبار ما لم يؤيّدها العلم الطبيعي المبني على الامتحان والاستقراء . فلننظر لنرى هل بحثَ العلمُ في هذا الموضوع وهل اثبتَ فيهِ شيئًا سلبًا او ايجابًا . لان اقاويل العلماء والشعراء كثيرة وظنونهم لا حدَّ لها ولكن الباحث عن الحقائق لا يعتدُّ الاَّ بما اثبتهُ العلم بعد ان محّصهُ التمحيص الكافي . وهنا نجد العلم يسند الراي العام لان الذين جعلوا هذا الموضوع درسهم وبحثوا فيهِ البحث الطويل استنتجوا انهُ يوجد علاقة بين ذكاء العقول وانحراف بعض وظائفها الذي يُعَدُّ ضربًا من الجنون اي ان بين الذكاء والجنون علاقةً قريبةً ولكنها تختلف في كيفيّتها عن العلاقة التي كان القدماء يزعمونها . واصحاب هذا المذهب قد اتّصلوا الى هذه النتيجة بطريقَي البحث العلمي اي بالاستقراء والاستدلال كما سترى

ان من انواع الخَلَل العقلي ومن ابسطها الذهول الذي يعتري بعض الناس حينما تشغلهم الافكار . فان هذا الذهول اذا استولى على الانسان قادهُ الى اعمال تشبه اعمال المجانين في كونها خالية من الرويّة . واكثر كبار العقول الذين امتازوا بالذكاء وتوقّد الذهن كان يعتريهم شيءٌ من هذا الذهول . يفتيك عن الاسهاب في سرد الشواهد ما يُروَى عن الفيلسوف

ارخيدس الذي لما اكتشف ناموس خفة الاجسام العائمة في الماء خرج من الحمام وطاف السوق عاريًا وهو يصفق بيديه وينادي وجدتها وجدتها . وما يُروى عن الفيلسوف اسحق نيوتن الذي كان يلبس كمًا من قميصه ثم يدخل عن نفسه قبلما يلبس الكم الآخر فيبقى الساعة والساعتين لابسًا عاريًا . وما يروى عن غيره من كبار الفلاسفة الذين كانوا اذا غاصوا في بحث رياضي تمضي عليهم الايام وهم بلا طعام ولا شراب . ونحن نعرف رجلاً جليلاً من المشتغلين بالرياضيات المتبحرين في اسرارها كان اذا ضجّ التلامذة امام غرفته واراد ان يردعهم يسلُّ قشّة من الحصير ويهجم بها عليهم كأنه هاجم بهراوة

ومن انواع الخلل العقلي ايضًا الاعتقادات السخيفة كاعتقاد مدام دسنايل الكاتبة الفرنسوية الشهيرة بانها ستتألم من البرد حينما تدفن في قبرها . وكاعتقاد بنكال الفيلسوف بوجود هوّة عظيمة امامه فاغرة فاها لابتلاعه وهو مدفوع اليها قسرًا حتى لم يكن يهدأ روعه ما لم يُقيَّد بالسلاسل

ومنها رؤية الخيالات وسماع الاصوات التي لا حقيقة لها كما كان يحدث لنبوليون الاول فانه كان يرى نجمًا لامعًا يتقدّمه في حروبه وغزواته وكان يعتقد انه ملاكه الحارس وعنوان نصره . وفي ديار الشام رجل من كبار العلماء يرى شبحًا واقفًا امام عينيه وفيها شاب آخر من اذكياء العقول يرى ذبابة خضراء على كل صفحة ينظر اليها

ومنها الاثرة الشديدة التي تستولي على بعض العلماء والحكماء وتتمكن منهم تمكنًا يفوق الحدّ فيبخسون الناس اشياءهم ولا يعترفون لاحدٍ بالفضل . واكثر ما يقع بين العلماء من المشاحنات والضغائن كما بين نيوتن وليبنتز راجع الى هذا السبب

ومنها توغُّل بعض الاذكياء في ارتكاب المحارم واطلاقهم العنان للشهوات البدنية . ويكثر ذلك في الكتبة الفرنسويين فان الواحد منهم قد ينظم القصيدة البليغة او ينشئ المقالة الفلسفية وهو في حان الخمرة او في بيوت العواهر . قالت احدى السيدات في وصف روسو الكاتب الفرنسوي الشهير "ان الحكمة عجنت طينته والحافة خمّرتها" لانه كان من اذكى الناس واشقاهم. ومنذ مدة نشر بعضهم المكاتيب التي كتبها كستان الفرنسوي لعشيقاته فسوّد بها محيًا الحكمة والفلسفة التي فاض بها قلم ذلك الكاتب

ومنها التعرّض للسوداء والوسواس . وهذا مشاهد من قديم الزمان قال ارسطو ان كل الاذكياء معرّضون للسوداء ومثّل على ذلك باميدقليس وسقراط وافلاطون وعدد غفير من الشعراء . وامثلة ذلك بين المتأخرين كثيرة جدًا . وقد تشتدُّ السوداء في بعض الاذكياء حتى

تسوّل لهم قتل انفسهم . ومن الذين بلغت منهم هذا المبلغ غيتي الشاعر ويتوفن الموسيقي وشاتوبريان وجورج سند الكاتبان وكوبر الشاعر وسن سيمون والفيري . والثلاثة الاخيرون حاولوا الانتحار حقيقةً فالاول حاول شنق نفسهِ بحبل ثم ندم والثاني اطلق طبنجة على رأسهِ فقلعت عينهُ فاكتفى بها والثالث نزع الرباط عن يدهِ بعد النصد لكي يترف دمهُ ويموت . ومنهم تشترتن الشاعر وكلست الممثل وبتيكه الفيلسوف وهؤلاء الثلاثة انتحروا حقيقةً فالاول انتحر قبلما بلغ الثامنة عشرة والثاني انتحر مع عشيقتهِ وهو في الرابعة والاربعين والثالث غرّق نفسهُ في الماء وهو في السادسة والخمسين

ومنها حدوث العتاهة الحقيقية في سن الشيخوخة كما حدث لليبوس الباتي وسوذي الشاعر وسوفت المؤلف والاصبهاني صاحب كتاب الاغاني

ومنها موت كثيرين من اذكياء العقول بالامراض العصبية او الدماغية . فبسكال الشهير تسلّطت عليهِ هذه الامراض حتى بلغت فيهِ مبلغ الفالج وهو في التاسعة والثلاثين من عمرهِ ثم اوردته حتفهُ وكبلر الفلكي وكبنيه الطبيعي وموزار الموسيقي ماتوا بمرض دماغي وروسو وبديع الزمان الهمذاني وابن بونس المنجم ماتوا بداء السكتة واسحق بن حنين الطبيب مات بالفالج . واكثر الذين اشتهروا بالعلم والتصنيف في بر الشام في ايامنا هذه ماتوا بالفالج او بالسكتة كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والشيخ بشاره الخوري وفيها الآن شيخان جليلان من المشهورين بتآليفهما وكلاهما مصابٌ بالفالج . وقلّما ينجو احدٌ من اذكياء العقول من الصداع ونحوهِ من الآلام العصبية

ومنها العيُّ الذي يصيب بعض الاذكياء فيعييهم عن التحيُّل في الاكتساب فيعيشون في الفقر المدقع وقد يموتون جوعًا وهم لو قُسِم لهم من الفطنة ما قُسِم من الذكاء لارتقوا الى اوج الغنى والمجد وما احسن ما قالهُ الشاعر

كم عالمٍ عالمٍ ضاقت مذاهبهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقاً

شكا اليّ بعضهم قال اني أُؤلّف الكتب العلمية فاحبي عليها الليالي في البحث والتنقيب واحبّرها بسواد عيني ثم لا ابيع منها في السنة ما يفي ربا المال الذي انفقتهُ على طبعها وفلانٌ يجمع الكتب ممّا لم يخطّ فيهِ حرفًا ويطبعها فتدرُّ عليهِ الدنانير بالمئات والالوف . فقلنا لهُ انت عالم وغايتك تدوين العلم وذاك تاجر وغايتهُ كسب المال وكلٌّ منكما ساعٍ نحو غايتهِ وفاز بها فلا محل للشكوى ولا للّوم . ومنذ مدّة مات عالم كبير من علماء الفلك باميركا ولدى البحث عن سبب موتهِ وُجِد انهُ مات جوعًا من شدّة الفقر كذا قالوا ونحن نقول انهُ مات من شدّة العيّ

لاننا قبل ان قرأنا خبر موته ببرهة وجيزة قرأنا له مقالات فلكية في احدى الجرائد العلمية كان يجب ان تجعله استاذًا في اعظم المدارس لو كان عندهُ سعيٌ . وربما لو سعى له غيرهُ ما انتفع هو بسعيهِ فان سبنوزا الفيلسوف العظيم عرض عليهِ كثيرون مالاً طائلاً ليعيش بهِ وينقطع الى اشغالهِ الفلسفية فلم يقبلهُ بل كان يصنع زجاجات النظارات ويربح بذلك دراهم قليلة فيعيش بها عيشة زريّة جدًّا

هذه اشهر انواع الخلل التي تصيب اذكياء العقول ويربو عليها كلها الجنون الحقيقي الذي يصيب بعضهم كما اصاب كثيرين من الفلاسفة والحكماء والشعراء

هذا ولا يمكن ان تُعرَف العلاقة الحقيقية بين الذكاء والجنون ما لم نعرف حقيقة كلٍّ منهما اولاً . اما الجنون فقد ثبت الآن انهُ مرض دماغي . وصرنا نعرف كثيرًا من اسبابهِ الظاهرة الطبيعية والعقلية ولكنَّ معرفتنا لم تزل قاصرة عن ادراك ماهيتهِ . والذكاء امرهُ مجهول اكثر من الجنون فاننا لا نعرف شيئًا من اسبابهِ وجُهد ما نعرفهُ انهُ حالة من الحالات الطبيعية التي يشذُّ بها بعض الافراد عن نوعهم لسبب غير معروف تمامًا . فقد خطا المتأخرون عن المتقدمين خطوةً واحدة فقط فالمتقدمون كانوا يعتقدون ان الذكاء الهام الهي خاص والمتأخرون يعتقدون انهُ نتيجة اسباب طبيعية لا يعلمونها

اما سبب العلاقة بين الذكاء والجنون فنيهِ مذاهب ولعلَّ المذهب الذي ذكرهُ العلاَّمة سلي الذي اعتمدنا عليهِ في هذه المقالة هو اقربها الى الصواب . ومفادهُ

اولاً ان اصحاب العقول الذكيَّة شعورهم العقلي شديد جدًّا فيتأثرون باقل المؤثرات . وهذه الدنيا مملوءة بالاتعاب والشدائد فما لا يؤثر في جمهور الناس منها يؤثر في اصحاب الشعور الدقيق فيميلون الى السوداء على ما تقدَّم

ثانيًا ان ذكاء العقل لا يخفى على صاحبهِ فيرى نفسهُ مترفعًا عن غيرهِ من الناس وعن اعمالهم . فلا يزاولها بل يفضّل الاستقلال بنفسهِ والتغذي بنتاج عقلهِ على مخالطة الناس ومزاولة اعمالهم قيل ان القاضي ابا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كان يمرُّ على الناس ولا يسلّم عليهم فلامهُ بعض اصحابهِ في ذلك فقال

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل احجما
أرى الناسَ مَن داناهُ هان عندهم ... ومَن اكرمتْهُ عزةُ النفس أُكرما
وما زلتُ محتارًا بعرضيَ جانبًا ... عن الناس اعتدُّ السلامةَ مغنما
اذا قيل هذا منهلٌ قلتُ قد أرى ... ولكنَّ نفس الحر تحتملُ الظما

ولم اقضِ حق العلم ان كان كلما بدا مطمع صيرته لي سلّما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي لاخدمَ مَن لاقيتُ لكن لأُخدَما
أأشقى به غرسًا واجنيه ذلةً اذًا فاتباعُ الجهل قد كان احزما

ثم ان الانفراد عن الناس والاعتداد بالنفس يحرمان الانسان من فائدة اختبار غيره ويسلطان عليه السوداء وسوء الظن بالناس حتى يقول مع المعري

فظنَّ بسائر الاخوان سوءًا ولا تأمن على سرٍّ فؤادا

وما ابعد هذا عمّا يفعله التجار والصناع الذين يرسلون اموالهم وبضائعهم الى اقاصي الارض ويأتمنون عليها اناسًا ما عرفوهم ولا رأوهم ولا سمعوا لغتهم ولولا هذه "الامنية التجارية" لوقف دولاب الاعمال وبطلت المكاسب

ثالثًا ان الشغل العقلي نفسه ولاسيّما الاستنباط والابتكار من اصعب الامور واتعبها على الدماغ . واصحاب القرائح انفسهم لا ينظمون نظمًا بليغًا ولا يبتكرون ابتكارًا بديعًا ما لم يجهدوا عقولهم اشد الاجهاد . وكم من مرةٍ يجلس الشاعر او المصنف وقلمه بيده يجهد قوى عقله وينية في فيافي الخيال يفتش عن معنًى بديع ليصوغهُ في قالب النظم او النثر فلا تمضي عليه مدة طويلة حتى يشعر بصداع اليم كما يشعر بالم في يديه اذا طال استعمالهما . وما هذا الآلان الدماغ لا يذكو ما لم تحترق دقائقه ولا تظهر عرائس الافكار البديعة المجال ما لم يبلغ اقصى التهيّج وحينئذٍ تندفق تدفقًا كانها غير خاضعة للارادة . هذا اذا لم يجاوز الشغل العقلي نظم قصيدة او تصنيف مقالة واما اذا كان الشغل كبيرًا مثل تأليف كتاب ضخم او حل مسئلة عويصة مثل مسئلة ارلندا او المسئلة الشرقية فهناك المشقّة الكبرى وهناك التعب العقلي المفرط الذي يجفف موارد الحياة

رابعًا ان اهل القرائح يولدون قبل زمانهم فلا يعرف معاصروهم قيمتهم فيحتقرون اعمالهم ويستخفّون باشغالهم ويكون الفقر نصيبهم في الغالب فتتراكم عليهم هذه المحن وتعربس افكارهم وتزعج عقولهم وقد تحرفها عن مجراها الطبيعي فيقع فيها الخلل

خامسًا ان هذه العوارض كلها قد لا تؤثر في الانسان لانهُ صحيح البنية او قوي الارادة او لان جسمهُ وارادتهُ صحيحان قويان واما اذا كان ضعيف الجسم او ضعيف الارادة فلا يبعد ان تتغلّب هذه العوارض عليه وتوقع الخلل في دماغه . ولا يخفى ان كثيرين من اذكياء العقول الذين امتازوا على غيرهم بالاشغال العقلية الكثيرة كانوا من اقوياء الابدان الذين

عاشوا ومانوا ولم تجد الامراض اليهم سبيلاً ولكن ما كل الاذكياء كذلك فكم ذكي عاش ومات وبدنه مباءة للامراض والاوصاب . واكثر الاذكياء مصاب بداء يمرر الحياة ويجلب السوداء وهو عسر الهضم . وقد رأى بعضهم ان يرد جميع الادواء التي تصيب الاذكياء الى هذا الداء العياء . هذا من جهة صحة الجسم اما من جهة قوة الارادة فالمشهور ان في الاذكياء هوًى يدفعهم الى العمل دفعًا يكاد يكون خارجًا عن سلطان الارادة حتى قال اللورد بيكنسفيلد الشهير "ان المصنف من يندفع قسرًا الى الخوض في اعوص مسائل العلم او الى الركوب على اعلى اجنحة الخيال" ولذلك تجد الاذكياء ينظرون الى الاعمال التي علوها ولا يصدقون انها من عملهم . فاذا بلغ الذكاء هذا الحد من القوة والارادة هذا الحد من الضعف فلا يبعد ان يتوغل الانسان في اجهاد قوى عقله حتى تكلّ وتختلّ او ان يتطوّح في ارتكاب الجرائم وليس له من ارادته رادع قوي فيتلطّخ بجمأتها . او يتبع ميله الطبيعي ولا يهتم بالسعي والاحتيال لكسب المعيشة فيعد عيًّا ويعيش فقيرًا

ولكن لا مشاحّة ان الاذكياء هم قادة العقول وروّاد الحضارة مهما تكن عيوبهم . وانهم وان كانوا عرضة لآفات كثيرة فما ذلك الاّ لانهم يركبون اخشن المراكب واشدها خطرًا ويسيرون في مقدمة ابناء زمانهم ويتلقون المخاطر عنهم بانفسهم . وهم لا يُبرّزون اذا ارتكبوا محرّمًا ولكن لا يُحتقرون اذا افرطوا في اشغالهم او اذا اسكرتهم خمرة الاشغال العقلية عن حطام هذه الدنيا . ويستفاد من هذا البيان انه يجب مساعدة الاذكياء وهم صغار السن على تقوية ابدانهم وارادتهم وترسيخ المبادىء الادبية في نفوسهم حتى لا يفرّطوا في قوامها ولا يأتوا منكرًا

الحرب

(تابع ما قبله)

فتبسّم كريس وقال ومن يتلوهُ في السعادة قال هما اخوان من أرغوس كانا من ذوي اليسار وشديدي البأس وانتصرا في الالعاب (اليونانية) على الاقران وكانا محبين احدهما للآخر حبًّا شديدًا بارّين بوالدتهما فجرّاها في مركبة مسافةً (ستة اميال) حين لم يتيسّر لها ثيران لتجر المركبة حتى اتيا بها الى الهيكل لتتعبد فطلبت الى آلهة الهيكل ان تمنح ابنيها اعظم بركة تمنحها للبشر وكانا نائمين في الهيكل فاناما في مكانهما دلالةً على ان الآلهة تفضّل الموت على الحياة . فاقام لهما الشعب تمثالين في دلفي